المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثاني عشر بعد المئة

١ مايو سنة ١٩٤٨ — ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٦٧

التكافل الاشتراكي

نظرية مّا في النظام الاجتماعي

البحث الأول في تحليل النظرية

٥ — المساواة : الممكن منها والمستحيل [1]

المساواة كلة من تلكم الكلمات التي انتزعت من عالمها الأصلي ، أو كما يقول فقهاء اللغة من معناها الحقيقي ، لتطبق مجازاً في عالم الاجتماع . أما عالمها الأصلي فهو الدلالة على معانٍ طبيعية جامدة كقولك : إضافة غير المتساويين الى متساويين ، ينتج غير متساويين . أما العالم الدخيل الذي استعملت فيه هذه الكلمة فقد أخرجها من هذا الضبط الجامد ، وأضفى عليها معنىً مجرّداً ، فدخلتها المرونة والليونة وكل ما يصاحب المجرّدات من تفاعيل العقل وما يؤثر فيه من عوامل الحاجات الانسانية ، واطماع النفس البشرية .

عندما استخدمت كلة « المساواة » في المعنى المجرّد ، أريد بذلك أن يتّخذ منها قوّة للتعبير عن نظرية اجتماعية تدعو الى المساواة بين الأفراد ، ومن ثمّ الى المساواة بين الجماعات وكان السبب في هذا ظن بعض الباحثين من أهل النظر ، أنّ تطبيق هذا المعنى على المجتمع تطبيقاً عملياً جامداً ممكن في عالم الاجتماع امكانه في عالم الطبيعة ، وأنّ المساواة بين الأفراد ينتج المساواة بين الجماعات المختلفة ، وإنه كذلك ينتج المساواة بين الطبقات المتفرقة في

(١) نشر من هذا البحث أربع مقالات في ديسمبر ١٩٤٧ ويناير وفبراير وابريل ١٩٤٨

جمعية بعينها ، جمعاً منهم أن القول بأن إضافة المتساويين الى متساويين ينتج متساويين ، حقيقة يمكن أن يكون لها في الاجتماع مثل أثرها في عالم الرياضة مثلاً .

غير أن عالم الخلق ، أو عالم الحياة ، لم يضم في معجم لغاته معنىً المساواة . فليس في جميع عالم الحياة فردين أو شجرتين أو زهرتين أو ورقتين ، قد كملت بينهما المساواة حتى أنك لا تجد في تفاصيلهما فروقاً أو تباينات . ذلك بأن الطبيعة تسرف في الأشياء وانتاج الأحياء ، كما تسرف في التنويع ، تنويع التركيب والمظهر ، ولكنها الى جانب هذا تعنى بالابتكار ، ابتكار النماذج العالية ، نماذج الجمال والعبقرية . فاذا شبهت عالم الحياة بسهل منبسط فسيح كثرت فيه الأخاديد كما كثرت فيه التلال والمرتفعات ، فإنك تقع فيه أحياناً على قنن بارزة سامقة أشرفت بهامة الجبار على تلك الأقزام التي تتراءى عند سفوحها . غير أن الطبيعة مع هذا قد أسرفت أيضاً في تنويع الطابع الذي تتصف به تلك القنن التي تشرف بقاماتها الشامخة على ما يتراءى عند قدميها من تلك المخلوقات ، فجعلت منها عنصرين مختلفين ، عنصر للهدم وعنصر للبناء ، عنصر للتشييد ، وعنصر للتقويض ، طوعاً لذلك المبدأ الثابت في تضاعيف الطبيعة ، مبدأ أن البناء يحتاج لهدم ، وأن التشييد يحتاج للتقويض شأن الطعام إذا دخل الجسم فإنه لا يتمثل ويصير عنصر بناء إلا بعد أن يهدم هدماً كاملاً ويستحيل عناصر تتحلل ثم تتمثل فتبني أجزاء الجسم المتباينة بأن تصير من فطرتها .

* * *

يتضح من ذلك بكل جلاء أن كلمة المساواة لم يحدد معناها في الناحية المجردة من الفكر ، وان تحديدها الكامل إنما ينطلب في الناحية الجامدة . ولكن شاءت ظروف المجتمع الانساني أن يضطر المفكرون فيه الى البحث عن لفظ يعبرون به عن معنى النظام الذي يتخيلون أنه أساس الاصلاح الاجتماعي ، فقالوا « بالمساواة » ، لا لأنها تعبّر عن معنىً عملي يمكن تطبيقه ، بل لأنها تقابل في الذهن معنى المفاضلة ، وهي المبدأ الذي قام عليه نظام الجماعات التي خرج به الانسان من بدائيته على أن « المفاضلة » هي في الواقع النظام الذي لم يكن منه بدّ ، إذ أنه نشأة طبيعية خضعت لأوجه التفاضل التي هي فطرية في الأحياء ، أفراد وجماعات ، إذ كان الانسان عاجزاً عقلاً وفكراً من أن يتحكم في بيئته . فلما استقوى الانسان وأصبح عنصراً مؤثراً في البيئة الطبيعية وفي النظم الاجتماعية ، وأصبح لنظام

المفاضلة التي درج عليه الانسان منذ إن أصبح له مجتمع ، لا يتلاءم وحاجات الجمعية فتقتضي تغير الأحوال وتأثير الانسان في بيئته ، فمن خطأ أن أقول « بالمساواة » هو الدواء الذي يعالج به فساد الجمعية والذي يبرئها من مرض النظام التفاضلي في الاجتماع . ولكن هذه لم تكن غير طفرة ذهنية متعذرة التطبيق ، كما أصبح التفاضل الاجتماعي سبباً لا تطيقه الجماعات بحكم تطورها بعيد المدى ، وبحكم ما استطاع الانسان ان يغير من بيئته تغيراً جعل التفاضل من حيث مناقضته لحياة الجمعية ، كالمساواة من حيث أنها مستحيلة طبعاً وعقلاً وتطبيقاً

من هنا نستبين أن الانسان قد خضع في تطوره الاجتماعي لثلاث صور : أولاً الصورة التفاضلية : وهي صورة من الضرورة واللابدية ، لأنها نشأت مطاوعة لطبيعة الانسان ولأحكام الطبيعة قبل أن يصبح الانسان بارتقائه العقلي والفكري عنصراً مؤثراً فيها . وثانيها صورة المساواة : وهي صورة خيالية نزع الانسان نحوها بحكم أن تطوره قد بلغ الحد الذي انقلبت عنده الصورة التفاضلية في الاجتماع عنصراً للهدم لا عنصراً للبناء ، أي أنها أصبحت مناقضة لحاجاته . وعن هذه الصورة الخيالية قامت مذاهب اصلاحية كثيرة عملت على تحقيق ذلك الخيال ، خيال المساواة ، فكانت الاشتراكية والشيوعية والسوفيتية والنازية والفاشية ، إلى غير ذلك من الصور ، وهي عندي مذاهب طور الانتقال من النظام التفاضلي إلى النظام التكافلي . أما ثالثها فالصورة التكافلية التي تضع فيها هذه النظرية . وهي في الواقع الخطوة الفردية أو كما قلت هي الصورة اللابدية التالية بعد الصورة الانتقالية التي اتخذت المساواة أساساً لها .

لم تكن النظم التي قالت بالمساواة إذن صورة ثابتة من صور التطور الاجتماعي ، وإن كان من الطبيعي أن يلجأ الفكر البشري إزاء ما بدا في النظام التفاضلي القديم من مفاسد التصدع ، إلى نظرية أخرى في بناء المجتمع تقوم عليها نظاماته ومعاهده . غير إنها لم تكن غير صورة انتقالية . ويقضي هذا الوضع إن تكون في الصور التي نشأت عن فكرة المساواة صوراً انتقالية أيضاً . وفي هذا كل السر في ذلك القلق الذي يصيب الجماعات في هذا العصر ، فإنه أشبه بالمخاض الذي يتقدم ولادة الجنين ، له آلامه وله اضطراباته ، وله مساوئه ومضاعفاته . ولكن كل ذلك ضروري ولابدي ، ليخرج الجنين إلى عالم الوجود .

اسماعيل مظهر